ثلاثة أيام ..

(الثلاثاء)

زحام شديد .. تفوح رائحة العرق بطريقة بشعة و تسود أرجاء المكان ، الضوء الأخضر يترامى من القناديل المعلقة بالسقف المزين بزركشة إسلامية تصارع ألوانها كي لا تبهت .. الرؤوس تتمايل جيئة و رواحاً و كأنهم يؤدون طقوس عبادة بوذية كالحة ، يتراقصون ، يتمايلون ، يرددون بوتيرة واحدة و نغمة ركيكة خرجت عن اللحن المنظم لها "الله .. الله" .

و أنا ..

أراقب ما يحدث بأعين مفنجلة تزدرء الحضور و الافعال و تأنف من ذلك الجو الخزعبلي العتيق . الجميع يهيمون بنشوة العشاق لجلالة سيدنا الولي الراقد في ضريحه المحاط بسور مطعم بماء الذهب و مزدان بالحرير الاخضر كلون أوراق الشجر .

" مدد مدد يا صفي الله "

" مدد مدد يا صفي الله "

" مدد مدد يا صفي الله "

سكووت ..

اخترقت دوائر الدروشة المغلقة و أحكمت سيطرتي على جهازي التنفسي تجنباً لإستنشاق رائحة العرق المميتة و تنفست من فمي .. وقفت وسط الجموع المنذهلة من أصناف الناس المختلفة .. إنه سيدنا صفي الله المختار أعظم عابد لله و مختار الله وقت حياته وبعد مماته لتلبيه حاجات الناس و استجابة دعواتهم و إبراراً

بأقسامهم المغلظة ، إنه المفوض بالمعجزات بأمر من الله ، هو الذي أمر تمساحاً بأن يلفظ طفلاً قد أكله ، ثم رتب أشلاءه على هيئة جسد آدمي و أمرها أن تعود للحياة .. فعادت!

هو الذي كان يسير على الأمواج العاتية بكل رشاقة و مرونة ، يأمر السمك فيقفز من تلقاء نفسه ناحية الشباك .. إنه مولانا صفي الله المختار أعظم عباد الله و أشهر والٍ من أولياء الله الصالحين .. حانت ذكرى مولده العظيم فأتى الملبون من كل حدب ينسلون ، من البنادر و القرى و النجوع و البوادي و المدن .. أتى الفلاح الزاهد و العامل البسيط و الطبيب الشاطر و الفنان المرهف .. أتى الناس من كل حجر و كل شق يلبون نداء مولانا و يهتفون في أنفاس متقطعة ..

" مدد مدد يا صفي الله "

سكووت !! .

إنه أنا من يتكلم .. كادت أعينهم أن تبتلعني و هم يبحلقون لي في صمت و اندهاش من ذلك الفتى الشاحب الهزيل الذي لم يخطّ الشارب في وجهه بعد .. من الذي قام باقتحام دائرة الذكر الممجدة ..

- ما الذي تفعلونه يا عباد الله!

قال احدهم موضحاً

- نحن نتقرب إلى مولانا
- هل اتخذتم مولانا إلهاً من دون الله!

فقال الآخر مزمجراً

- إنه من يقربنا إلى الله أيها الاحمق الجاهل .

كتمت ضحكتي بصعوبة و جاهدت ضاغطاً على أعصاب وجهي كي لا ترتسم ملامح الضحكة التي كادت تفتك بي ثم قلت ..

- كذلك قال الذين من قبلكم ..

فقال الأول

- يا فتى .. نحن مسلمون فاحذر ما تقل .

- إقرأوا إن شئتم قول الله " وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.."

فقال أحد عجائزهم بوجه مكفر و صوت منبوح كمن ذبح بسكين و لا زال يجاهد لاستبقاء الروح ..

- نحن أدرى بديننا منك أيها الفتى ، فاذهب من هنا و إلا أصبت بضرر

(الاربعاء)

" مدد مدد يا صفي الله "

" مدد مدد يا صفي الله "

" مدد مدد يا صفي الله "

سكوووووت!! ..

كلاكيت تاني مرة ، الطقوس الكالحة ، الضوء الأخضر المتسرب من القناديل المعلقة بالسقف ذو الزركشات العتيقة ، الاصوات غير المنظمة ، اللحن الركيك ، رائحة العرق البشعة النفاذة تجتاح المكان مجدداً ، الكون يدور باتجاه و هؤلاء يدورون بالاتجاه المعاكس!

- ألا زلتم على حالتكم المرثي لها تلك!

قال العجوز ذاته و الدماء تغلي في أوردته بمجرد أن رآني ..

- يا فتى قلت لك ارحل ..

أدرت وجهي للناحية الأخرى فاتبع ..

- ارحل ولا تعد ابداً .. و إلا ستتأذى

لم اكترث لكلماته وإن كنت لا أنكر وقوع الخوف في صدري ، توجهت لمعشر الرجال و الشباب اليافع الولهان الهائم في عشق مولانا المحروس ..

- يا اهل الله ما هكذا كان النبي يفعل ، ولا تقرب أصحابه كذلك لله

فقال أحد الفتية مجادلاً ..

- بالطبع لا .. كيف و سيدنا الوالي لم يكن قد ولد بعد!

فقلت بعد ضحكة ساخرة ..

- لقد كان لديهم من هو أعظم من واليك .. نبي الله محمد بشخصه!

صمت ساد المكان ..

- لماذا لم يتقرب الصحابة لله بقبر النبي! لماذا لم يتقرب التابعين لله بقبور النبي و صحابته .. و كذلك أتباع التابعين و السلف الصالح من بعدهم و هلم جره!

الصمت لا زال يسود أرجاء المكان و الأعين تبحلق فيّ و الأوجه محتقنة مكفهرة ..

- أجيبوني أثابكم الله .. إني ضال فدلوني على طريق الصواب .. إن كان الصواب هو طريقكم حقاً!

قال أحدهم باشمئزاز يتطاير من الحروف ..

- ما الذي تريده من كل هذا!

- يا قوم .. إني لكم نذير مبين

فقال و كأنه قد استطلع نواياي ..

- ها قد إتشح بثوب الأنبياء ابن العاهرة الخصي

اعتلاني مارد الغضب و تطاير الشرر من عيني الدامية و خطوت خطوة واحدة تجاهه ..

(الخميس)

" الليلة الكبيرة "

كل شيء كان على حاله كاليومين الماضيين و ازداد أضعافاً مضاعفة .. العرق يتزايد بغزارة لتجتاح رائحته الأنوف ، الضوء الأخضر تلألأ و تبخترت ظلاله على الجدران العتيقة المزركشة منذ العهد الفاطمي ، الأصوات تكاثرت حتى تاه المعنى ، الباعة تمكنوا من احتلال ارصفة المسجد بنجاح و نصبوا بضاعتهم من ملابس مستعملة و ألعاب للصبية و حمص و حلاوة المولد و غيرهاا .. الناس حول الضريح كزبد البحر .. الآن نحن كغثاء السيل!

بدت بعض الوجوه تبدو مألوفة لي ، إنه العجوز الغاضب و الرجل المفتول العضلات ذو القبضة الحديدية ..

" مدد مدد يا صفي الله "

" مدد مدد يا صفي الله "

" مدد مدد يا صفي الله "

..

لم أقلها! تحسست وجهي الذي تغيرت ملامحه بعد ما حدث ليلة أمس .. إن الألم لا يحتمل ، و هؤلاء القوم متعصبون جهل . و أنا هزيل و ضعيف و نحيف و بي عبر الدنيا و الآخرة! و لكن لي قلب لا زال يرفض ما يحدث هاهنا .. لي أعين تبكي مما تراه و تعجز عن تغييره .. لي يد تشعر بالعار لأنها لم تقدم شيئاً و لم تؤخر!

أشعر بالضعف الآن .. أشعر بالسقم الآن .. أشعر بالخزي الآن .. أشعر بالعار الآن ..

خارت دموعي كطوفان حبيس خلف سد عنيد

أبكي و أبكي و أبكي ..

أبكي لأني لم أستطع تحريك ساكن

أبكي لأني لم أؤد ما قدمت من أجله

أبكي لأن هذا ما باستطاعتي عمله الآن!

أبكي .. لأن البكاء لا زال مجاناً

أبكي .. لأنني ما عدت أملك سواه

فنحن كغثاء السيل

نحن قاع القاع و مؤخرة الأمم

نحن لا نقدم ولا نؤخر

نحن لا نقو على التفوه بالنصح

نحن الموبوئون بالفكر!

نحن الموكوسون في الأرض

نحن أصحاب الأحلام الطامحون السذج

اللعنة في الأرض تصيب كل من يحلم

و المجد فقط للمجانين ذوي الأحلام السوداء ، التي لا تتضمنها ألوان و لا أحداث ولا أشخاص و لا أي شيء .. المجد في هذه الدنيا لمن لا يحلم .. لمن لا يبالي ..

فقط من لا يبالي!

صاح العجوز باندهاش قائلاً

انظروا ..

" مدد مدد يا صفي الله!! "

للكاتب / محمد البشير

من أعمال الكاتب أيضاً :

. رواية / خضر ابن مداح النبي

. المجموعة القصصية / مذكرات س

. قصائد شعرية متفرقة بالفصحى و العامية المصرية

للتواصل مع الكاتب :

https://www.facebook.com/Al.bashir1998